

دراسة تحليلية مقارنة بين الاتجاه الشعري لتوماس إليوت ويوسف الخال

على نجفي إيوكي (الكاتب المسؤول)*

مينا محمدى**

الملخص

قد تأثر كثير من الشعراء العرب المعاصرين بالآداب الأجنبية وقد ترك كبار الشعراء العالميين بصماتهم على هؤلاء ومنهم الشاعر الأمريكي توماس ستيرنز إليوت (١٨٨٨م - ١٩٦٥م) حيث أثرت قصيدته المشهورة "الأرض الخراب" بصفتها المأساوية مباشراً وغير مباشر على الشعراء خاصة بعد قضية فلسطين وأوضاع العرب الاجتماعية والثقافية المتأزمة؛ إذ يرون أرضهم أشبه بالأرض الخراب لإليوت فوجدوها يباباً وينتظرون الماء الذي ينتهي إلى الحياة من جديد، ويمكن القول إن الواقع السياسي والاجتماعي المؤسف في الوطن العربي هو العامل الرئيس الذي دفعهم إلى استلهام الأرض الخراب. هذا وإن يوسف الخال من المتأثرين بالأدب الأجنبي عامة وإليوت خاصة؛ الذي أسس مجلته المعنونة بـ "شعر" وأسّس حركة شعرية حول هذه المجلة في التحويل الفعال لمفهوم الشعر في اللغة العربية. ومن المسلم أن شعرهم ودراساتهم الأدبية في مجلة "شعر" كان تحت تأثير الأدب الغربي خاصة إليوت. على ضوء أهمية المسألة ودورها في فهم شعر يوسف الخال خاصة والشعر العربي المعاصر عامة، تسعى هذه المقالة باتجاهها المقارن ومبتهجها الوصفي - التحليلي إلى إلقاء الضوء على وجوه تأثير إليوت على شعر الشاعر يوسف الخال في الفكرة والرؤية والشكل والصورة بالتركيز على المقاطع التي يلاحظ فيها تأثر الخال بقصيدة "الأرض الخراب". ومن أهم نتائج الدراسة هي أن مفهوم يوسف الخال للشعر يبدو قريباً من المفهوم الإليوتي في الخصائص التالية: استخدام الإيحاء التاريخي أو الأسطوري والتعبير عن معاناة مشاكل الجيل والأمة والرؤية المسيحية أو التموزية؛ لذلك يمكن القول بأنه تأثر مباشراً بإليوت.

الكلمات الدليلية: الأثر الغربي، إليوت، الأرض الخراب، الشعر العربي، يوسف الخال.

*. أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها، جامعة كاشان، أصفهان، إيران

najafi.ivaki@yahoo.com

** مرشحة للدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة كاشان، أصفهان، إيران

تاريخ القبول: ١٤٤٤/٠٨/١٤

تاريخ الاستلام: ١٤٤٢/٠٩/١٧

المقدمة

إن الشاعر يوسف الخال ولد سنة ١٩١٦م في غضون الحرب العالمية الأولى في قرية "عمار الحصن" بسوريا وبعد بضع سنوات رحلت عائلته لتستقر في مدينة طرابلس شمال لبنان. وعندما اشتعلت نار الحرب العالمية الثانية كان على الدراسة الجامعية في الكلية الأميركية في مدينة حلب، فلمّا دعى للتدريس في الجامعة هذه، كان الأدب العربي مادةً دراسية مطلوبة عنده. وفي عام ١٩٤٧م التحق بالجامعة الأمريكية في بيروت وبعد سنتين من الدراسة في الفلسفة، تخرّج بدرجة البكالوريوس فكان ذلك آخر عهده بالدراسة الجامعية. وفي عام ١٩٤٧م ترك التدريس وتسلّم رئاسة تحرير "صوت المرأة" التي أنشأتها جامعة نساء لبنان. وبعد أن أكبّ على الأدب وذاع صيته، عزم على زيارة الولايات المتحدة لبضعة أشهر امتدّت إلى سنوات سبع. فهو انتقل إلى نيويورك للعمل في الأمانة العامة لمنظمة الأمم المتحدة وفي تلك السنوات (١٩٤٧م-١٩٥٥م) تعاون الخال مع ١٤ مجلة، فكانت "مجلة شعر" وليدة تجارب حصل عليها عبر تلك السنين وبعد عودته إلى بيروت في عام ١٩٥٦م بدأ تحضير إصدار مجلة "شعر" وأصبح صدورها حدثاً هاماً في حياته وفي مسيرة الشعر العربي أيضاً.

يرى يوسف الخال أن مفهوم الشعر الحديث كان مجهولاً لولا الانفتاح على الغرب حيث نراه قائلاً: «و فيما يختص بالعالم العربي فإنه ازداد انفتاحه على الاتجاهات المعاصرة؛ فأدى هذا الانفتاح إلى مفهوم جديد للقصيدة كان مجهولاً من قبل عند الشعراء والنقاد.» (الحلاوي، ١٩٩٤م: ٣٩) والحق أنّ إلبوت تأثر إلى حدّ بعيد من الحرب العالمية الأولى وكتب قصيدته متأثراً بمناخات هذه الحرب، من الناحية الأخرى إنّ يوسف الخال المتأثر من إلبوت، ربط بين التأثر بالحرب العالمية وقضية فلسطين؛ حيث ظهر العالم العربي وخاصة فلسطين عالماً مأساوياً ضائعاً في رؤيته. والطريف أنّ الشعراء العرب واصلوا هذه الرؤية فيما بعد حيث أصبحت اتجاهات معروفاً بين اتجاهاتهم الشعرية.

فالشاعر يوسف الخال أطلع على أشعار إلبوت وباوند وترك إلبوت أثراً واضحاً في تجربته الشعرية حيث وصف الخال علاقته مع الحركة الشعرية التي قادها باوند وإلبوت

بالكلمات التالية: أنا أقرب إلى باوند وإليوت منى إلى سواهما من أقطاب التجديد الشعري منذ بداية هذا القرن. (فضول، ٢٠٠٠م: ٤٦) هذا وإن «يوسف الخال كثير التأمل بمجريات الحياة والكون، لقد سحقت حضارة القرن العشرين في الغرب وسحقت الشرق الجامد كالحجر، هكذا أصبح الشاعر بين حضارتين؛ حضارة الغرب المتطورة وحضارة الشرق الجامدة وبين زمنين؛ زمن الغرب المتحرك نحو العمران وزمن الشرق المتسحق الذى يسقطنا فى الماضى الثابت.» (جيدة، ١٩٨٠م: ٢٥٨)

وما يجدر بالذكر فى أهمية تأثير الشعر الغربى على الشعر العربى هو أنّ «هناك شعراء أوروبيين بارزين، ذاع صيتهم فى جميع أنحاء العالم وأثروا تأثيراً مباشراً فى غيرهم من الشعراء مثل إليوت وإنّ هذا الشاعر لعب دوراً بارزاً فى عالم الشعر وأثر فى الشعراء العرب المحدثين هو الذى أصبحت قصيدته "الأرض الخراب" معيناً لا ينضب للشعراء الذين أتوا من بعده.» (المصدر نفسه: ١٣٨) فالتوضيح أنّ جوهر إبداع إليوت كان فى أسلوبه المتميز، ودعوته إلى المعادل الموضوعى، وتوظيف التراث، ولغة الحديث اليومي، والاستناد إلى الأسطورة، فضلاً عن إيمانه بالحضارة الإنسانية، وبتداخل الماضى فى الحاضر، الذى ظهر جلياً فى قصائده. (الضمور، ٢٠١٤م: ٨٦٦) ويمكن القول إنّ ما من قصيدة تركت أثراً بالغاً على الأدب العربى الحديث مثل قصيدة "الأرض الخراب" ويعلّل تلك الاستجابة العاطفية من الكتاب العرب للقصيدة بالتجربة المساوية التى تشبه فى شموليتها العالمية تجربة إليوت فى ردّ الفعل عنده بالنسبة للحرب العالمية الأولى.

فإنّنا لو تعمّقنا لرأينا أنّ أوجه التأثير من الغرب واضحة ولا يمكن الإغماض عنها أبداً حيث «اقتبس شعراء الشعر الحر كثرة استخدام الأساطير والرموز الدينية والقصص الموروثة لدى الشرقيين والإغريق بالإضافة إلى الرموز العبرانية المسيحية والإسلامية، وعلى الجملة تقديم الشعراء العرب لهذه التكنيكات فى أشعارهم كان بتأثير ازرا باوند، وإليوت من خلال وسيط هو "الغصن الذهبى" لفرانز وبهذا عادت الآلهة والأساطير من خلال الشعر الغربى.» (مورية، ٢٠٠٣م: ٣٦١) على ضوء هذه المسألة ودور إليوت المحورى فى الشعر العربى العاصر، تتعاطى هذه المقالة أشكال تأثر يوسف الخال كشاعر

عربي مطلع على معطيات غريبة من صاحب قصيدة الأرض الخراب.

أسئلة البحث

والأسئلة التي تطرح نفسها في هذه الدراسة هي:

١. ما هو أهم وجوه تأثير يوسف الخال باليوت؟
٢. أجماع تأثيره بشعر إليوت تعميقاً للرؤية الفكرية في الشعر أو كان في الشكل والظاهر فحسب؟

فرضيات البحث

من المفروض:

أولاً، أن الرؤية المسيحية، المنهج الأسطوري الانبعاثي، الموقف الدرامي والنزعة التراجيدية، والميل إلى الموت والنفور من المدينة من أهم تأثير إليوت على الخال. ثانياً، أن تأثير يوسف الخال برؤية اليوت الفكرية كان أشد وضوحاً وعمقاً.

خلفية البحث

وفيما يتعلق بخلفية البحث يمكن القول إن الدراسات حول تأثير الشاعر ت.س. إليوت كثيرة جداً بالإنكليزية والعربية وغيرهما؛ فقام "ماهر فريد" في مقالته "أثر ت.س. إليوت في الأدب العربي الحديث" (١٩٨١م) بعرض موجز أشبه ببلوغرافيا وصفية لكل ما وقع تحت يده من ترجمات وكتابات بالعربية عن إليوت، فإنه واجه القارئ العربي بحقيقة الموقف الذي طغت عليه الشهرة في العربية. والآخر جبرا إبراهيم جبرا الذي بادر بتقييم قيم ونشر بحثاً بالإنجليزية بعنوان "الأدب العربي الحديث والغرب" وهو في الأصل محاضرة ألقاها في عدة جامعات بريطانية بدعوة منها عام ١٩٦٨م وما زال يعتبر مرجعاً هاماً حول الموضوع خصوصاً ما يتعلق منه باليوت حيث بين وجوه تأثير الكتاب والشعراء العرب من خلال اتصالاتهم بكتابات إليوت.

ومحمد شاهين قدّم دراسة موجزة في كتابه "إليوت وأثره على عبدالصبور والسياب" (١٩٩٢م) حيث عالج موضوع تأثير إليوت على الشعراء المذكورين مدللًا بالنقد

والتحليل على صدق ما جاء في عرض ماهر فريد وجبرا جبرا. وفي كتاب آخر "المؤثرات الأجنبية في الشعر العربي المعاصر" (١٩٩٧م) قام يوسف حلاوى بدراسة تأثير إليوت على السياب، عبد الصبور، حاوى وأدونيس وعالج فيه نماذج شعرية من التأثير المباشر بإليوت لبعض الشعراء المعاصرين واستنتج أنّ تأثير الشعراء المعاصرين لم يكن تأثيراً مباشراً بل تأثر تمثّل وانصهار، وبالتالي نقطة ارتكاز للإطلاق في عالم الإبداع الشعري. أيضاً دراسات حول الشاعر الأميركي إليوت وافرة كدراسة "إليوت عند النقاد العرب" من فؤاد مخلف ولطيف محمد ودراسة "إليوت" من فائق متى، التي قامت بنقد وتحليل شعر إليوت وكتاب "الأرض اليباب الشاعر والقصيدة" من "عبدالواحد لؤلؤة" حيث رسم في هذا الكتاب صورة تقترب من الوضوح عن الشاعر، في واحدة من أهم قصائد هذا القرن العشرين عرفها الغرب مستمداً رأياً ناقداً ومستنداً على تقديم التفسير والتحليل. وكتاب "أرض الضياع رائعة الشاعر ت.س. إليوت" ترجمة ودراسة من الكاتب العربي "نبيل راغب"؛ والملاحظ أنّ المترجم اختار كلمة "الضياع" بدلاً من "الخراب". وأخيراً طبع "عماد عبدالوهاب الضمور" مقالة "أثر إليوت في شعر عزالدين المناصرة" (٢٠١٤م) ووصل إلى أنّ المناصرة عمق رؤيته الفكرية إثر تأثره بشعر إليوت، إضافة إلى ما حققه التعالق النصّي مع شعر إليوت من تعزيز للجانب الدرامي في شعر المناصرة، فكلاهما يشتركان في تجربة المعاناة والإحساس بالضياع.

وفيما يتعلق بالدراسات التي كتبت في إيران حول هذا الموضوع، فلا بدّ من القول بأنّ المقالة التي ترتبط إلى حدٍ بدراستنا هي "المسيح والرموز المسيحية في شعر يوسف الخال" (١٤٣٥هـ) من كبرى روشنفكر ومجيد محمدي بايزيدي حيث عالجت هذه المقالة شخصية المسيح (ع) والرموز المسيحية من وجهة نظر هذا الشاعر وكشفت عن انطباع أشعاره بالطابع المسيحي وديانته المسيحية. إضافة إلى هذه الدراسة، فقد كتب حسين ميرزاينيا وزملائه مقالة "دراسة نظرية تي. اس. إليوت وأثرها على أدونيس" (١٣٩٢هـ.ش) مستنتجين أنّ أدونيس تأثر بشكل غير مباشر بهذه النظرية خاصة في مجال استخدام الرموز الشعرية للتعبير عن الأحداث الخارجية. إذ أنّ على الرغم من أهمية الشاعر يوسف الخال في تطور الشعر العربي المعاصر وعلى الرغم من تأثير

إليوت عليه لم تكن دراسة وتحليل تأثير إليوت عليه محوراً أية من الدراسات المسبقة، في حين هذا الموضوع على جانب عظيم من الأهمية.

إليوت وتأثيره في الشعر العربي المعاصر

ولد إليوت سنة ١٨٨٨م في الولايات المتحدة الأمريكية وهو من أعمدة الشعر والنقد المعاصر وصاحب مدرسة أدبية تركت بصماتها واضحة على الشعر والمسرح بصفة خاصة، وعلى الأدب العالمي بصفة عامة. في عام ١٩١٧م صدر له أول ديوان شعري بعنوان "بروفروك وملاحظات أخرى" ^١ وبعده بعامين صدر ديوانه الثاني بعنوان "قصائد" ^٢ وكانت قصيدته "الأرض الخراب" أو "أرض الضياع" ^٣ التي نشرت عام ١٩٢٢م سبباً في الشهرة العالمية المدوية التي حازها بعد ذلك. بل كانت هذه القصيدة سبباً في الحماس الذي استقبلت به كل دواوين إليوت بعد ذلك. (راغب، ٢٠١١م: ٣٧-٣٩)

وكان إليوت قد كتب "الأرض الخراب" في أعقاب الحرب العالمية الأولى والهزة العنيفة التي أحدثتها في قيم الحضارة الغربية، هي الحرب التي شملت العالم لأول مرة في تاريخه. (المصدر نفسه: ٨١) وعلى هذا القول قصيدة "الأرض الخراب" تحلّ تجربة إليوت الإنسانية تحمل معاناة الإنسان الذي يتمزق من شرور المجتمع وما يحتويه من متناقضات هائلة ومن جشع وخبث هذا الإنسان الذي سحقت حضارة القرن العشرين وما تحمله من أدوات هدم وتدمير وتخريب. هذه القصيدة تمثل رؤياً الإنسان من حروب الدمار والموت؛ فالشاعر يريد أن ينقل إلينا أزمة الإنسان المعاصر وسط الفوضى والضياع والتمزق واليأس والاعتراب. (جيدة، ١٩٨٠م: ١٤١) لقد استطاع إليوت أن يتحدث عن نظرة الناس القائمة إلى الحضارة، وعن ضياع الفرد، واضطرابه النفسي في ظلّ تلك الحضارة النخرة. (عباس، ١٩٥٩م: ١١٢)

هذا وإنّ إليوت الشاعر والناقد يعدّ أحد الشعراء الكبار جداً بالنسبة للشعرية

1. Prufrock and Other Observations

2. Poems

3. The Waste Land

الأوروبية والغربية بشكل عام والشعرية العربية الحديثة على حد سواء، نظراً لأعماله الشعرية والنقدية ذائعة الصيت التي حازت على اهتمام الشعراء والنقاد. (مخلف ومحمد، ٢٠١٠م: ٢) فهو «أكثر الشخصيات تأثيراً على الشعر العربي المعاصر وقد مارس هذا الشاعر تأثيراً حاسماً ليس على الشعر العربي فحسب، بل على الشعر العالمي كله والفن عموماً وذلك من خلال شعره وبخاصة قصيدة "الأرض الخراب" أو من خلال آرائه النقدية.» (الحلاوي، ١٩٩٧م: ٥٢) ومن خلال البحث والتمحيص يمكن القول بأن يوسف الخال أحد الشعراء العرب الذين تأثروا به في شعره وفي إيصال رسالته إلى الإنسان العربي.

يوسف الخال ومواضع تأثره بإليوت

أمضى يوسف الخال ثمانية أعوام في الولايات المتحدة الأمريكية واطلع بجوانب الشعر الحديث والنظرية الشعرية الأمريكية وتجربة القرن العشرين وعاد حاملاً فكرة تأسيس حركة مشابهة للحركة التي قادها إليوت وإحداث تحولٍ أساسي في الثقافة والأدب اللبناني والعالم العربي. ورأى أن حضارة لبنان والدول الأخرى المجاورة حضارة متوسطة غربية يعود أصلها إلى الشرق الأدنى، فربما كان السبب في تأثر الخال بإليوت هو أن كليهما دافعا عن حضارة أوروبية متوسطة. (فضول، ٢٠٠٠م: ٤٤) وإذا تناولنا شعر يوسف الخال، نجد أن مفهومه للشعر يبدو قريباً من المفهوم الإليوتي، يظهر ذلك جلياً من خلال حديثه عن الخصائص التي يجب توفرها في القصيدة الحديثة، من هذه الخصائص «استخدام الإيحاء التاريخي أو الأسطوري أو الفولكلوري ومنها التعبير بالصورة الحية المجسدة والتعبير بكلمات وعبارات حية عند الناس، لا في بطون الكتب والقواميس ومنها التعبير عن روح العصر، أي معاناة مشاكل الجيل، أو الأمة، على أنها من مشاكل هذا العصر، وذلك برفعها من نطاقها المحلي إلى النطاق العالمي.» (الخال، ١٩٧٨م: ٩٥)

وشعر الخال في أي نوع كان، ينطبق تماماً على قصيدة إليوت "الأرض الخراب" وخاصة طبيعة الرؤيا المسيحية عنده تشبه إلى حد بعيد الرؤيا المسيحية عند إليوت

ويبدو هذا الموقف المشترك للشاعرين واضحاً عند الخال. «إن هذا الموقف للخال هو الموقف ذاته الذى وصل إليه إليوت والذى تجسّد شعرياً فى قصيدته "الأرض الخراب". ثم إن إليوت يجهر بإعلانه عن عقيدته المسيحية ورفضه للمدينة الحديثة. (الخلاوى، ١٩٩٧م: ٧٤) العودة إلى الأساطير التراثية برزت بوضوح من خلال مجلة "شعر"، إن المجلة من خلال أبرز المعبرين عنها، رأت فى عودة الشعر إلى الأسطورة التمزوية، عودة إلى التراث القومى، تنقذ الشاعر من الجذب الحضارى والفكرى. (المصدر نفسه: ١٠٣) ويمكن القول إن البداية الحقيقية لترجمة شعر إليوت إلى اللغة العربية ترجع إلى أوائل الخمسينات من القرن الماضى، مع صدور كتاب عن دار مجلة "شعر".

تأسيساً على دراسة استقصائية لشعر يوسف الخال يمكن تبين المؤثرات الإليوتية فى شعر الشاعر حول خمسة مجالات وهى الرؤية المسيحية، المنهج الأسطورى الانبعائى، الموقف الدرامى والنزعة التراجيدية، والميل إلى الموت والنفور من المدينة. لذلك فى هذه الدراسة نجعل هذه المجالات محوراً ونعالج شعر الشاعر من هذا المنظور.

الرؤية المسيحية

استلهم يوسف الخال تجربة شخصية النبى عيسى المسيح (ع)، لا تعبيراً عن تجربة دينية فقط، بل لينقل معاناته الذهنية والجسدية، فالغاية الأساسية من استخدام شخصية المسيح (ع) هى تجسيد الحالة النفسية للشاعر الذى يألم من معاناة مجتمعه وبأنه مضطهد وحزين واجتهاده لإصلاح مجتمعه ضاع سدى وعلى هذا يأتى رمز المسيح رمزاً مأساوياً. فالشاعر إثر ديانته المسيحية خاصة إثر اطلاعه على منهج استلهم إليوت من المسيح فى قصيدته الشهيرة ونظريته "المعادل الموضوعى" فى عملية استلهم الشخصيات التراثية، قد تأثر برمز المسيح كيف لا وإن قصيدة "الأرض الخراب" يمكن بل يجب أن تقرأ على أنها موعظة مسيحية مستترة... كما أن أساطير القرون الوسطى تساهم فى رموز "الأرض اليباب" لأن أبطال هذه الأساطير يبحثون عن رؤيا النعمة السماوية التى يرمز إليها بدم المسيح فى أسطورة "الكاس المقدسة". (جيدة، ١٩٨٠م: ١٤١) ثم إن إليوت يجهر بإعلانه عن عقيدته المسيحية ورفضه للمدينة الحديثة حيث قال

إنّه كاثوليكي في الدين، كلاسيكي في الثقافة، ملكي في السياسة. (إليوت، ١٩٨٠م: ١٩٨-١٩٩) فيوسف الخال يعتبر فاتحاً للرؤية المسيحية في الشعر العربي؛ فرمز المسيح في شعره يرمز إلى الشاعر الذى يضحى بنفسه فى سبيل وطنه وشعبه وفى دائرة هذا الرمز استخدمت رموز أخرى متصلة بعملية الصلب مثل حمل الصليب الذى يشير إلى عبء التضحية فى طريق المعاناة الطويل الذى يجب على الشاعر أن يقطعه. «إن يوسف الخال، الوارث ضمن التراث المسيحى الخاص، هو فاتحة التجربة المسيحية بالمعنى الميتافيزيقى الخالص فى الشعر العربى.» (أدونيس، ١٩٨٥م: ٤١)

إنّ الخال فى النموذج الشعري «وأدرنا وجوهنا: كانت الشمس / غباراً على السنايك، والأفق / شراعاً محطماً. كان تموز / جراحاً على العيون وعيسى / سورة فى الكتاب» (الدعاء، ١٩٧٩م: ٢٢٧)، يخاطب القارئ خطاباً مباشراً فى حين وهو لا يتحدث من خلال قناع البحر أو تموز أو المسيح فحسب، فتشكل ازدواجية فى القصيدة؛ هو يلجأ إلى المسيح بشكل مباشر من خلال ذكره فى القصيدة. وأما عيسى محلّص البشرية فقد تناساه عابده وأداروا له ظهورهم ليتحوّل إلى مجرد سورة فى الكتاب المقدس. (الحلاوى، ١٩٩٤م: ٢١٩) استخدم يوسف الخال المسيح وظروف صلبه ورمز بذلك إلى الشاعر العربى فى صراعه من أجل إحياء الشعر العربى ورفضه أن يظل أسير التقاليد الشعرية الموروثة. (مورية، ٢٠٠٣م: ٣٦٧)

تتجلى هذه المعانى فى أبيات من قصيدة "دفن الموتى" لإليوت: «...هنا التاجر الأعور، وهذه الورقة / ذات الصفحة البيضاء، شئ ما يحمله على ظهره، / شئ منعت من رؤيته. لا أرى / الرجل المعلق. إياك والموت غرقاً / أرى حشوداً من الناس، تدور فى حلقة» (راغب، ٢٠١١م: ٥٣) التوضيح أنّ الورقة ذات الصفحة البيضاء التى بدا فيها الرجل المعلق برغم بياضها فهى للمسيح المصلوب على خشبة الصليب من أجل خلاص البشر. فقد سار المسيح حاملاً صليبه إلى مكان الصلب رمزاً للإنسان المثقل بآلام هذا العالم، ولذلك أصبح الصليب فى المفهوم المسيحى رمزاً للتضحية والفداء من أجل الخلاص الروحى. (المصدر نفسه: ٩٦)

التجربة المسيحية ذات صدى فاعل فى أشعار إليوت الذى قال: «الرجل المصلوب.

إخش الموت بالماء / ارى جموعاً من الناس، يدورون فى حلقة/شكراً.أذا رأيت العزيزة مسز إكويتون / قل لها إنى سأجلب خريطة البروج بنفسى: /على المرء أن يكون حذراً هذه الأيام» (لؤلؤة، ١٩٩١م: ٣٩) الرجل المصلوب بين أوراق الرزمة. وهذا الرمز يتصل بالإله القتيل فى طقوس الخصب القديمة كما يتصل بالمسيح المصلوب الذى يكون موته حياة العالم وقيامته خصوبة الأرض. لكن ايها الباحث: إخش الموت بالماء فالغرق موضوع رئيسى فى القصيدة ويكون على مستويات شتى من المعنى. (المصدر نفسه: ١١٤)

الحق أن معظم قصائد ديوان "البئر المهجورة" تضحج بالحنين إلى المسيح المخلص أو الله ويستعين الشاعر هنا بالمخلص / المسيح، من خلال التفاعل المتبادل بين هذه الرموز تصبح العودة الى المخلص هى طريق النجاة الوحيدة من العمى وهى الملجأ الخير والحضن الدافئ للأنسان الذى لا حضن إله. (الحلاوى، ١٩٩٤م: ٢١٠) فنراه قائلاً: «هذه الأرض /مواتاً أمسّت. وأمست عروقا/من حديد: أنى تلفتّ منها/غربةً بابل... /والصدى ما يزال يرجعُ يمتدّ /«اصلبوه، اصلبوه!» / ما للضحايا/منذ هابيل منذ سقراط يا بحر/رغيّف وخمرة للبرايا» (الخال، ١٩٧٩م: ٢٣٠-٢٣١) فالآيات تنطبق على الرمز الخلاصى وتجسد من خلال المسيح والمسيح قد صلب ولكنه اقتدى البشرية بهذه التضحية.

ويستنبط من النموذج الشعرى الآخر: «قبضتى كلت وأظفارى براها / الزحف من دار لدار / منذ ما سمّرت فى الحرف مصيرى... / أترانى أهرج الدار وأمضى / «يدفن الأموات موتاهم» وأمضى؟ / أين أمضى؟ / إلى المأتم فى الغابة والميت إله؟ / أ إلى العرس، وما / فى العرس خمر ومسيح؟ أم ترانى ألزم الصمت وأبقى /جاثماً بين عظام / عافها نور النهار...» (الخال، ١٩٧٩م: البئر المهجورة، ٢٠١) أن الشاعر لا يريد أن يكون رومانسياً ولا اجتماعياً أو كلاسيكياً بل إنه بين عظام جافة وعلى هذا الأساس هو يريد إحياء الشعر العربى باستخدام رمز المسيح فى شعره الذى صورة من الديانة المسيحية.

ومعظم النقاد المحدثين قد أشاروا إلى تأثير إليوت فى الشعر العربى المعاصر، خاصة

فى شعر الخال وبالنسبة إلى تجلّى الرؤية المسيحية فى شعره، «فى قصيدة البئر المهجورة أصداً قوية من الشاعر الأميركي ت.س. إليوت، وقد تجلّى ذلك فى ميزتين أساسيتين هما: اللغة البسيطة القريبة من لغة الحياة كما دعا إليها إليوت، والرؤية المسيحية التى هى طريق الخلاص الوحيد عند كلا الشاعرين، وإن كان هذا الخلاص المسيحى ينبع من ذات الشاعر فى آنٍ معاً، وسنرى مثل ذلك فى قصيدته "القصيدة الطويلة"، وينسحب هذا أيضاً على معظم شعر يوسف الخال.» (الخلاوى، ١٩٩٤م: ٢٢١) ويمكن القول إن المسيح المصلوب على خشبة الصليب يكون من أجل خلاص البشر فى شعر كلا الشاعرين. «فقد سار المسيح حاملاً صليبه إلى مكان الصلب رمزاً للإنسان المثقل بالأم هذا العالم، ولذلك أصبح الصليب فى المفهوم المسيحى رمزاً للتضحية والفداء من أجل الخلاص الروحى.» (راغب، ٢٠١١م: ٩٦)

يقول الشاعر فى قصيدة أخرى: «لا أرى سيداً فى الجمع. البجعُ يتمطى فى / البحيرة ولا نسرٌ فى الأفق. المياه راكدةٌ والصفاف / أقرب من الأنف. الهواء ثقيل. النور ثقيل. الحمار / ينطق، لا بأعجوبة. الأعمى يبصر، لا بأعجوبة. الميت يقوم، لا بأعجوبة. الأعجوبة رقم فى آلة، / والسماءُ بقيت فى المجهل. / كنتُ صامتاً وأنا أتكلم. المرأة إلى جانبى رداء / قاحل» (الخال، ١٩٧٩م: قصائد فى الأربعين، ٢٨٣) صورة المسيح تتجلّى من ثنايا بعض الكلمات مثل الأعمى الذى يبصر والميت الذى يقوم فهاتان معجزتان من معجزات المسيح. المعاناة دينية الطابع، فعندما أراد أن يصف لنا واقعنا المتخلف جاء بتعابير توحى بالمسيح مثل العمى الذى يبصر والميت الذى يقوم. ويتضح من كل هذا أنّ المأساة فى حقيقتها دينية. أى كل هذا ناتج عن افتقارنا الشديد للإيمان وبالنتيجة يكون البطل الواحد فى القصيدة هو المسيح. (الخلاوى، ١٩٩٤م: ٢٢٥-٢٢٦)

المسيح عند الخال مملكة، شخص وهو البداية والنهاية والجذر والخلاص. كل ما يدخل مع الشاعر من أشياء هذا العالم فى حوار وتآلف، هو من أجل توكيد المسيح وهو تجرى تحت رايته وباسمه. (أدونيس، ١٩٨٥م: ٣٩)

والشاعر يريد الحياة الخصبية بعودة الحبيب والحبيب رمز للمسيح المنجى فنراه يتحدث عنه: «أريد عودة الحبيب: إرجمنى أيها الموج / أعشاب البرية تصلّى بلا بخور.

لا صليبَ في / الهيكل. لاصورةَ على الحائط. مفتوحةً هي الأبواب / ولا من يدخل /
 أجزئي أيها الغائب» (الخال، ١٩٧٩م: قصائد في الأربعين، ٢٨٥)
 تأسيساً على كل ما سبق يمكن القول بأنّ البطل في جميع القصائد الثلاث المدروسة
 (البئر المهجورة-الدعاء-القصيدة الطويلة) واحد وإن اختلفت أسماؤه؛ في تعبير آخر
 إنه المسيح من ثنايا قصة إبراهيم أو من خلال رمز البحر أو المسيح يخفى وراء القصيدة
 والشاعر مؤمن بالخلاص في النهاية؛ لأنّ العقيدة المسيحية تؤمن بالمنقذ للبشر. ومما لا
 مرأى فيه هو أنّ يوسف الخال إثر اطلاعه على الأرض الخراب حاول أن يعطى للمسيح
 وتجربته دوراً فاعلاً في بنية نصوصه الشعرية وفي إيصال الرسالة المعنية للمتلقى العربي.

المنهج الأسطوري الانبعاثي

الطريف أن الأساطير الشرقية أتت الشعراء العرب المعاصرين عن طريق شعراء
 الغرب ونعني إليوت خاصة عن طريق قصيدته "الأرض الخراب". ويدعى يوسف الخال
 أنّ قصيدته "البئر المهجورة" هي أول قصيدة تناولت هذه الإتجاه. (جيدة، ١٩٨٠م: ٢٣١)
 وهو جمع كثيراً من الشعراء الحدائين في وقت واحد في مجلته "شعر" وهم نزعوا إلى
 هذه الإتجاه جميعاً. ولا بدّ من التأكيد هنا على أن الكتاب الغربيين هم الذين أوحوا إلى
 الأدبا العرب بالعودة إلى عالم الأساطير حيث جاء توظيفهم للأسطورة نتيجة تأثرهم
 الواضح والمباشر بالكتاب الغربيين، سواء أرضوا أم رفضوا. (على، ١٩٧٨م: ٢١)
 ولعلّ الأهمية الكبرى لإليوت هي في اللجوء إلى الأسطورة، ضمن إطار مفهوم
 نظريته "المعادل الموضوعي"، وقد جسّد ذلك عملياً في شعره وخصوصاً في قصيدته
 "الأرض الخراب" حتى أصبحت نموذجاً ليس على الصعيد العربي فحسب، بل على
 الصعيد العالمي أيضاً. (حلاوي، ١٩٩٧م: ٥٦) وعن تأثير إليوت في منهجه الأسطوري
 على الشعراء العرب المعاصرين يقول عز الدين إسماعيل: فليس من الصعب على الدارس
 أن يلمس في كثير مما ينتجه شعراؤنا المعاصر التأثير المباشر بإليوت، وأن هؤلاء الشعراء
 قد صاروا في شعرهم يصدرون عن إيمان بالمنهج الأسطوري. وهم قد يتفاوتون في مدى
 قربهم من روح هذا المنهج وقدموا إلينا أروع النماذج الشعرية كلما اقتربوا منه وتحركوا

فى اطاره. هذا وإنّ الشاعر يوسف الخال من أكثر الشعراء المعاصرين ولعاً بتكديس الرموز الأسطورية القديمة فى شعره، وعدم توفير المجال الحيوى اللازم لها فى القصيدة، وإحالتها إلى مقابلات عقلية. (١٩٩٦م: ٢٣٢-٢٣٣)

من أمثلة ذلك قوله فى قصيدة "الدعاء": «وقبلاً نهمُّ بالرحيل نذبح الخراف / واحداً لعشّرتوت، واحداً لأدونيس / واحداً لبعل...» (الخال، ١٩٧٩م: البئر المهجورة، ٢٣٤) أو فى قصيدة "الوحدة": «بلى، و كنا الشاطئى اليشده / بشاطئى طموحنا الرهيب، المغارة اليقيع / فيها ألسباد، الشرفة اليطل / منها قيصر وهنيبعل، الموكب اليشق / دربه الصليب» (المصدر نفسه: البئر المهجورة، ٢١١) يتّضح لنا تتابع الشخوص الرمزيين الأسطوريين على نحو لا يتيح لنا فرصة تمثّلها فى الإطار الرمزي الشعري السليم، وأتّما تتعامل معها بوصفها رموزاً عقلية لا تحمل فى القصيدة سوى مغزاها المحدد القديم. (اسماعيل، ١٩٩٦م: ٢١٤)

وقد لعبت الأسطورة دوراً بارزاً فى نقل القصيدة العربية إلى ساحة الدرامية؛ لأنّ الشاعر خلع على الأسطورة معنى انسانيًا فى الحاضر، أى ألبسها معاناة الإنسان للمشاكل المعاصرة، لعلّ أهمية استخدام الأسطورة والرمز فى الشعر المعاصر ترجع إلى أن العالم المعاصر عالم مخفق وليس على الشعراء الناقدين قدرة على تفشى الاضطهاد والمعاناة فأصبحت الأسطورة أداة توصيل أى وسيلة لإستدعاء حدث معهم. بناءً على ذلك فإننا أمام شاعر يبذل قصارى جهوده لإصلاح الوضع فلننظر إلى هذه الأبيات: «وأدرنا وجوهنا: كانت الشمسُ / غباراً على السنايبك، والأفقُ / شراعاً محطّماً. كان قموزُ / جراحاً على العيون وعيسى / سورةً فى الكتاب.» (الخال، ١٩٧٩م: الدعاء، ٢٢٧) يعرض لنا الشاعر الحالة التعيسة التى يدور فى فلكها هو وأبناء وطنه، فهى هى شمس الحياة مطفأة، إذ تحوّلت الى مجرد غبار على حوافر الخيل، و قموز الآن يتمزق بأنياب الخنزير وأطبقت جراحه على العيون فغدا الكون أعمى يتغشاه الظلام الدامس. (الحلاوى، ١٩٩٤م: ٢١٢) «ليت ذاك النهار لم يك، أنظرُ / كيف غارتُ جباهنا، كيف جفّتُ / فى شراييننا الدماء، وكيف / انبجّ فينا صوتُ الألوهة، أنظرُ / هوذا الدربُ موحشٌ، ورحابُ / الدارُ قفرٌ، والشطُّ مضجُعٌ رملٍ / هجرته الأمواج.»

(الخال، ١٩٧٩م: البئر المهجورة، ٢٢٧) ليس عندنا شيء يبعث على الافتخار والكرامة وكل شيء في حياتنا يجزّ إلينا العار والخفّة.

الحق أنّ الشاعر يحمل همّاً حضارياً وهذا ما يفسّر لنا إلحاحه على أسطورة الموت والانبعث المتجسّد في مثل: تموز والمسيح وأدونيس و... هذا هو الشاعر القائل: «ليت ذاك النهار لم يك، ليت/ العين ما أغمضت عليه - سواد/ الموت أبهى - ليت الوجوه الأدرناها/ استحالت ملحاً./ ألا من ينجى، من يعيد الرجاء غيرك يا بحر/ دعوناك فاستجب لدعانا» (المصدر نفسه: الدعاء، ٢٣١)

فيما يتعلق برمز "تموز" أو "أدونيس" الذي استخدمه ت.س. إليوت يمكننا القول بأنّه رسخ في خيال الشعراء الشبان من العراقيين واللبنانيين، وخاصة أولئك الذين ينتمون الى مدرسة مجلة "شعر" والذين يعتقد بعضهم أنهم أحفاد الفينيقيين القدامى. وقد أصبح تموز في الشعر الحر رمزاً لإيقاظ الحضارة الإسلامية من سباتها الطويل. (مورية، ٢٠٠٣م: ٣٧١) وهذا ما يشير أحد الباحثين في قوله: كان إليوت يعود الى القديم ليستوحى منه رموزه ولينقل رؤاه عبر هذه المسار الرمزي والأسطوري بلغة حية جديدة. (جيدة، ١٩٨٠م: ١٤٢)

إنّ هناك علاقة وطيدة بين الأسطورة والشعر من حيث نشأتهما التاريخية وأن استحضار الشعراء المعاصرين للأسطورة هو تعبير عن أزمة الإنسان في القرن العشرين وجسّد إليوت هذه الأزمة حين أعلن صراحة أن لاخلاص من الأرض الخراب إلا بالعودة إلى أحضان التراث الشعبي بطقوسه ومعتقداته. (بلحاج، ٢٠٠٤م: ١٠) على ضوء هذه الأهمية فليس بعجيب أن نرى يوسف الخال مستلهماً التراث الديني ومعطياً له البعد الأسطوري قائلاً:

«عرفت ابراهيم، جارى العزيز من زمان / عرفت بئراً يفيض ماءؤها / وسائر البشر. / تمرُّ لا تشرب منها، لا، ولا / ترمى بها ترمى بها حجر. / ... يقول ابراهيم فى وريقة / مخضوبة بدمه الطليل / «ترى يحول الغدير سيره كأن / تبرعم الغصون فى الخريف أو ينعقد الثمر / ويطلع النبات فى الحجر» (الخال، ١٩٧٩م: البئر المهجورة، ٢٠٣) إنّ ابراهيم هو جاره الإنسان مصدر الخصب والعطاء، بئر تفيض ماء، ولكن الإهمال الذى

جعل البشر تمر به لا تشرب ولا ترمى به حتى الحجر. ويوسف الخال يتوغل في مفازة المدن الميتة بحثاً عن حياة الإنسان والنبات ... مستمداً من تجربة الإنسان الأولى صورة لتجربة الإنسان المعاصر في عريه وضياعه ووحدته. (جيدة، ١٩٨٠م: ٢٣٣-٢٣٤). وتبدو الخلفية الكامنة وراء تشكيل الرؤيا دينية متمثلة في إبراهيم والمسيح. إن الرموز هنا تمثل الغربة والافتداء والموت الفردي من أجل الجماعة.

الموقف الدرامي والنزعة التراجيدية

في قصيدة "الأرض الخراب" نأى إليوت عن عالم التراجيديا القديمة بصرخاته ولطماته وكوارثه الدامية وأباطرته وملوكه وأمرائه المأسويين ليكتشف عالم الحياة اليومية المعاصرة. وبذلك لفت نظر شعراء هذا العالم الى جوهر عالمهم الحقيقي وكانت رؤية إليوت الشعرية رؤية روحية دينية متشائمة تؤمن بعث الحضارة المعاصرة، وفشل الإنسانية المتواصل طوال عشرين قرناً هي عمر الحضارة المسيحية في الوصول الى الله. (راغب، ٢٠١١م: ١١)

كان يوسف الخال يلتفت حوله فيجد أن المفازة قد حلت في كل شيء، وأن البوار مسح تربة الحياة ونضارة الوجوه فانتشر القحط والجفاف، فيرفع صوته معلناً: وجوهنا مفازة/مشت عليها قدم البوار (جيدة، ١٩٨٠م: ٢٣١) وأن الشاعر في كل ديوانه (البئر المهجورة) يتساءل لماذا انتشر الجذب واختفت الواحة الظليلة ونضب الماء الجاري وشحّ العطاء وبارت المواسم الكبار ويرى أن الشاعر ضائع في مفازة الحياة الحاضرة يبحث عن نفسه ومجتمعه. (المصدر نفسه: ٢٣٢) أما فيما يختص باحساس الإنسان بضرورة استجلائه لذاته ولموقفه في اطارتلك الدراما التاريخية، فإن الشاعر يوسف الخال يعبر عن هذا الإحساس تعبيراً مركزاً في قصيدته Ecco Homo حيث يقول:

«أعلم أن الأمس بى حاضر/ وأننى أبو الزمان العتيد/ وأن أيامى على ضيقها/ تنال منى كل شئ جديد/.../ أنا الذى يجتر عهد الأولى/ تناحروا منذ ابتداء السنين/ متى أعى نفسى فتجرى المنى/ معقودة النصر على العالمين؟» (الخال، ١٩٧٩م: ٢٥١)

الشاعر يشير إشارة غير مباشرة إلى تجربته من خلال شعره أنها تكون تجربة إنسانية

مشتركة صادقة على المستوى الإنساني العالم؛ إنما يتمثل في هذه القصيدة بوضوح
 درامة الإنسان الذى يحاول أن نعى ذاته وسط حشد الوقائع التاريخية التى تصنع فى
 مجموعها نسيج الحياة. كانت هذه القصيدة تتناول الموقف الدرامى العام للإنسان والحياة
 من جذوره. (اسماعيل، ١٩٩٦م: ٣١٠)

وهذا المعنى متوافر فى قول إليوت: «أبها التيمز العذب، تمهل حتى أنهى
 موالى /.../ فى مساء شتوى خلف مستودع الغاز/ وخواطرى تحوم حول حطام سفينة
 أخى الملك / وحول موت أبى الملك من قبله / أجساد بيضاء عارية على الأرض
 الرطبة الواطئة...» (راغب، ٢٠١١م: ٦١) يوحى إلينا إليوت بأن الحب لا بد أن يموت
 فى الأرض الخراب، سواء أكان بين ذراعى امرأة فقيرة بئسة مثل ليل أو فى قلب
 أميرة بئسة أيضا مثل أوفيليا؛ ذلك أنهما تخضعان لنفس ظروف الضياع والإحباط
 بصرف النظر عن الاختلاف الشاسع فى المستويات الاجتماعية والاقتصادية. (المصدر
 نفسه: ١١٤) ويقال أن هذه النزعة الحزينة فى الشعر المعاصر العربى ليست إلا نوعاً من
 التأثر بأحزان الشاعر الأوروبى الذى عاين طغيان الحضارة المادية على الروح الغربى
 بخاصة فى القرن العشرين. ولا يمكننا فى الحقيقة أن ننكر التأثير المباشر أو غير المباشر
 ت.س. إليوت وهو يتسنى قمة الموجة الناعية على الحضارة الأوروبية المعاصرة أقفار
 الروح فيها وبخاصة قصيدة "الأرض الخراب" وقصيدة "الرجال الجوف".

إن تأثر الشاعر بإليوت حمل معه أجواء مأساوية كما فى قوله: «لألف سنة وأنا
 أمضغ القات. لألف سنة وأنا / أركب جواداً ميتاً. / لألف سنة وأنا بلا وجه / قناعى
 لوحة على قبر / واليوم أنا سائح بلا هوية. تقودى مزيفة / ورأسى بلا شعر / وموكبى
 قصبٌ تصفرّ فيه الريح» (الحال، ١٩٧٩م: قصائد فى الأربعين، ٢٨٤) الشاعر يشير من
 خلال هذه الرموز إلى حالة الركود المستشرية فى العالم العربى منذ سقوط بغداد على يد
 هولاكو المغولى؛ فالحركة معدومة فى عالمنا، ونحن عاجزون عن التقدم الحضارى وليس
 لنا وجه بين الأمم المتقدمة، وكأن هذه الحالة باتت مستعصية على الزمن. (الحلاوى،
 ١٩٩٤م: ٢٢٣)

إن المأساة فى حقيقتها دينية، تخلصنا الحضارى ناتج عن افتقارنا الشديد للايمان أى

أن العلة هي دينية في الأساس وبالنتيجة يكون البطل الأوحى في القصيدة هو المسيح فليس لنا من الخلاص إلا على يديه وهذا الواقع المظلم الذى يطبق علينا قد تأتى بسبب ابتعادنا عن المسيح بحسب مفهوم الشاعر. وفي الأخيرة إن إيقاع الموت والجو المأساوى مسيطرة على الخال وإليوت الشعريتين، أورد من مورد الجذب واليأس وتأثر الخال من شعر إليوت بارز وواضح فى هذه من الحالة الجذب الروحى.

الميل إلى الموت

كانت جدلية الحياة والموت هى رسالة بعض الشعراء إلى جمهورهم وهى رسالة تضع الخصب مكان الجفاف والأمل مكان اليأس والحياة مكان الموت والنصر مكان الهزيمة. ولقد استعان هؤلاء الشعراء على أداء هذه الرسالة بأسطورة الحياة والموت، المتمثلة فى جملة من الأساطير يرتبط انبعاثها بمعاناتها للموت كالفيثيق والعنقاء وتموز التى اشتهر باستحياء مناخها، جماعة من الشعراء أطلق عليه خلال الخمسينيات اسم شعراء التموزيين نسبة إلى تموز اله الخصب وهم بالتحديد السياب وحاوى وادونيس ويوسف الخال. والسؤال الذى يطرح هنا هو لم استعان هؤلاء الشعراء على أداء هذه الرسالة بأسطورة الحياة والموت؟ والسبب واضح للعيان، إنّه فى رأى الدارسين لم يكن سوى «أن اقتران هذه التجربة بلفظتى حياة وموت، فى فترة قريبة العهد بنكبة فلسطين، قد أعطاهما فى الأدبيات المكتوبة فى هذه الفترة وما بعدها أهمية لاتتناسب مع القيمة الحقيقية لما كتب هؤلاء الشعراء من شعر.» (المعداوى، ١٩٩٣م: ١٧٢-١٧٣)

وفى شعر الشاعر يوسف الخال لم يعد الموت يعنى النهاية المادية لكائن من الكائنات بل هو يعنى موت مجتمع بكامله أو موت الحضارة بعينها، بحيث يصبح المطلوب هو بعث ذلك المجتمع وإعادة تلك الحضارة إلى الوجود «وإذا كان المجتمع العربى والحضارة العربية يعانيان من الموت هذا فإنهما بحاجة إلى انبعاث حقيقى يعيد إليهما الحياة المفقودة والشاعر العربى استطاع أن يرتفع بشعره إلى مستوى موت الحضارة العربية وبعثها، عن طريق توظيف أسطورة الموت والبعث.» (المصدر نفسه: ١٧٤) فالنظرة الفاحصة إلى شعر الشاعر يكشف لنا أنه عن المأساة التى يعيشها الواقع وتكبّل الإنسان فيه والغريب أن

طريق الخروج والنجاة من تلك المأساة مفتوحة والحل موجود:

«عرفت ابراهيم، جارى العزيز، من زمانٍ / عرفته بثرأً يفيض ماؤها / وسائر البشر /
تمرّ لاتشرب منها، لا ولا / ترمى بها، ترمى بها حجرٌ / لو كان لى أن أنشر الجبين / فى
سارية الضياء من جديد / يقول ابراهيم فى وريقةٍ / منحضوبةٍ بدمه الطليل / ترى، يحولُ
الغديرُ سيره كأن / تبرعم الغصونُ فى الخريف أو ينعقد الثمر / ويطلع النبات فى
الحجر؟» (الخال، ١٩٧٩م: البئر المهجورة، ٢٠٤-٢٠٣)

إن ابراهيم هنا يتقمص الإله تموز أو أدونيس الذى يمزقه الخنزير فتتحول دماؤها
الى شقائق وينبعث ربيعاً أخضر يبعث الانتعاش فى الأرض. (الحلاوى، ١٩٩٤م: ٢٠٦)
أو ابراهيم هنا هو المسيح الذى يفدى العالم بموته مادام يشعر بمسؤوليته تجاه الآخرين.
إن ابراهيم هنا ليس من أجل استمرار الحياة فحسب بل لتغييرها إلى الأفضل. ومن
مظاهر هذا التغيير تحول الطبيعة التى لن تعرف غير الربيع وتحول العقبان عن طبيعتها
الافتراسية فيه السلام والأمن وتسترجع المعامل والشوارع والحقول طبيعتها الحية التى
فقدتها الإنسان المعاصر، كما يسترجع الإنسان كرامته ويعود الضال التائه إلى أرض
معاده. ولعلّ هذه المبادئ الحياة السلم الكرامة محور الخطيئة هى المبادئ التى ضحى
من أجلها المسيح قديماً ويضحى من أجلها ابراهيم راهنا فإبراهيم هو مخلص الإنسان
حديثاً.

إنّ هذه المعانى تقترب كثيراً من شعر إليوت حينما قال: «فليباس الفينيقى الذى
مات منذ أسبوعين / نسى صراخ النورس، وتقلبات البحر العميق / وحسابات الريح
والخسارة/...» (راغب، ٢٠١١م: ٦٩) فى أرض الضياع يتحول الماء من رمز للطهر
والنقاء والخلاص إلى هاوية للموت. ذلك أن البحر هنا يرمز للحياة بكل أمواجها
المتلاطمة الصاخبة، وفليباس هنا يرمز للإنسان الذى لا بد أن يسقط ميتا بين لججها
مهما طال به العمر، فلم يعد فليباس يسمع صراخ النورس الذى يرمز الى الحياة
والحيوية. (المصدر نفسه: ١٤٢) كما قيل إليوت هو شاعر الموت والإقطاع والإمبريالية
العالمية. (Colla, 2015: 257)

أو أبيات أخرى من الخال: و«أيها البحر، يا ذراعاً مددناها / إلى الله، ردّنا لك،

دعنا/ نستردّ الحياة من نور عينيك/ ودعنا نعود، نرعى مع الريح/ شراعاتنا، نروح ونغدو/ حاملين السماء للأرض دمعاً/ ودماءً جديدةً» (الخال، ١٩٧٩م: البئر المهجورة، ٢٣٠) البحر يصبح ذراع الخلاص وهو ينبوع الحياة، إنه الطريث إلى الله وهي الوحيدة القادرة على إنقاذ الإنسان برأى الشاعر. ويرى الخلاوي أن رؤيا الشاعر ههنا دينية ويطلب من البحر أن يفتح ذراعيه لأشروعنا لكي تغدو وتروح بين السماء والأرض. (الخلاوي، ١٩٩٤م: ٢١٥) وهذا يشبه ما نجده عند إليوت حيث يجد الخلاص في صورة الماء والبحر والبحر نبع الحياة الأزلي وإنه المخلص والمنقذ للبشرية:

«بعد وهج المشاعل على الوجوه العرقة/ بعد صمت الصقيع في البساتين/ بعد الآلام في الأماكن الحجرية/... والصياح والعيول/ والسجن و القصر وتجابوب/ رعد الربيع على الجبال القصية/ الذى كان حياً هو الآن ميت/ الذين كنا أحياء نحن الآن نموت/ بقليل من الصبر...» (لؤلؤة، ١٩٩١م: ٥٣) هذا ما قال إليوت في (قصيدة ما قال الرعد)، يحتمل هذا البيت تفسيرات عدة: فقد يفيد أننا في حالة موت لأننا قد فقدنا الصبر ولم يبق لدينا منه سوى القليل. وموضوع الموت في الحياة هو موضوع مطهر دانتته حيث تنتظر الأرواح بين الحياة والموت. وترتبط هذه الصورة بصورة المتحدث في القسم الأول من القصيدة الذى يقول "ماكنت حياً ولا ميتاً" وهي صورة الحياة في هذه الأرض اليباب حيث يكون البشر في انتظار الخلاص الذى يبحث عنه المتحدث هنا في صورة الماء والمطر. (المصدر نفسه: ١٤٤)

وهذه الأبيات: «نيسان أقسى الشهور، يخرج/ الليلك من الأرض الموات، يمزج/ الذكرى بالرغبة، يخرج/ حامل الجذور بغيث الربيع» (المصدر نفسه: ٣٦) قيلت في "قصيدة دفن الموتى" من إليوت، قد يكون صدى نظام دفن الموتى وهو من اعرف كنيسة الانكليكان ونيسان هو شهر صلب المسيح وقيامته، ولذا فهو قاس وهو يخرج الليلك من الأرض الموات بتفضيل كلمة يخرج على كلمة يولد التى فى الأصل والأرض الموات كما فى الأصل هى شبه ما لا ينتفع به من الأرض لإتقطاع الماء عنه وهو يمزج. (المصدر نفسه: ١٠٧)

على ضوء ما أسلف ذكره فى شعر المعاصر العربى امتلأت نغمة الحزن إلى حد

تلقت النظر، بحيث أن الحزن والميل إلى الموت قد صار محوراً أساسياً في معظم قصائد الشعراء العرب المعاصرين، ولا يمكن في الحقيقة إنكار التأثير المباشر أو غير مباشر لشعر إليوت بخاصة قصيدة "الأرض الخراب" وقصيدة "الرجال الجوف".

النفور من المدينة

إن المدينة في الشعر المعاصر ليست إلا تقليداً من الشعر الغربي «أن الشاعر حين يحس بتضايقه من المدينة ويتحدث عن الغربة والقلق والضيق - مجرد محاكاة - شعراء الغرب حين والقلق والضيق انما يحاكي - مجرد محاكاة - شعراء الغرب حين يضيقون ذرعا بتعقيدات الحضارة الحديثة وبالمدينة الكبيرة ممثلة لها.» (عباس، ١٩٩٩م: ١١١) «فكان الشاعر العربي الحديث، حين يتحدث عن القاهرة ودمشق وبغداد وبيروت، إنما يتحدث عن باريس ولندن ونيويورك على لسان شاعر أوروبي، وإنما كان الشاعر العربي تابعاً لشعراء الغرب في مواقفهم من مدنها.» (المعداوي، ١٩٩٣م: ١٥٢)

يمكن القول إن الشاعر يوسف الخال من أكثر الشعراء العرب المعاصرين احساساً وادراكاً بالنسبة لموضوع المدينة؛ فإنها في شعر الخال مدينة الوهم كالمدينة في شعر إليوت: «مدينة الوهم، / تحت الضباب الأسمر من فجر شتائي، / إنساب جمهور على جسر لندن، غفير، / ما كنت أحسب أن الموت قد طوى مثل هذا الجمع / حسرات، قصيرة متقطعة، كانوا ينفثون» (٣٨) (لؤلؤة، ١٩٩١م: ٣٨) والمدينة التي تدور فيها الموت والجذب ليست مدينة فاضلة كما وصفها الكتب المقدسة «بل هي مدينة الوهم مدينة زائفة غير حقيقية، رأى فيها الشاعر تحت الضباب السمر من فجر شتائي جمهوراً غفيراً ينساب على جسر لندن، سائرين نحو أعمالهم صباحاً وهم أشبه بالموتى مثل جمهور الناس في جحيم.» (المصدر نفسه: ١٤٥)

وفي الأبيات التي قالها إليوت: لا يوجد ماء هنا فقط يوجد صخر / صخر ولا ماء والطريق الترابي... / جبال صخر بدون مياه / لو وجد الماء لتوقفنا لنشرب / بين الصخر لا يستطيع أن يتوقف الإنسان أو بفكر / العرق قد جف والقدم في الرمال... (العيسوي، ١٩٩٨م: ١٨) إن المدينة التي تقام فوق الجبال تتصدع وتتشقق وتتهار

كالأبراج المتهدمة، لكنه مدرك لحقيقة وضعه ولحقيقة وضع ما بعد الحرب بصفة عامة حين يقول: نحن نفكر فى المفتاح، فكل فى سجنه. (المصدر نفسه: ١٩)

المدينة الزائفة/ بضابها القاتم فى ظهر يوم من أيام الشتاء / كان المستر أوجنيدس التاجر الأزميرى/... (راغب، ٢٠١١م: ٥٦) مدينة الوهم هى لندن التى يمكن أن ترمز إلى أية عاصمة من عواصم أرض الضياع ولا يتكلم اليوت عن هذا الوهم بشكل مباشر وإنما يجسده فى رموزه؛ الضباب الداكن يحيط بكل الأشياء ولا نرى عبر طياته سوى حشد غفير يعبر جسر نندن وكأنه أصبح الجسر الذى يفصل بين الحياة والموت، فحياتهم أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الموت، أو هى الموت نفسه. (المصدر نفسه: ١٠٠)

«المدن الزائفة، / والجموع المتزاحمة تعبر قنطرة لندن / فى فجر يوم من أيام الشتاء و كان الضباب داكناً، / إننى ما كنت أخالأ لموت قد طوى مثل هذا العدد الضخم...» (متى، ١٩٩١م: ١٠٥) لقد كانت المدينة فى الماضى رمزاً للأهومة. لكنها الآن بكل بريقها الخارجى أصبحت زائفة. وأودت المدينة الحديثة بكل عناصر الترابط التى كانت تفخر بها فى الماضى من محبة وإخاء وتآلف. فنظرة سكان المدن الحديثة إلى الأمور والمشاكل نظرة ضيقة مليئة بالأنانية وحب الذات ولا يهتمهم من أمر الدين كذكرى صلب المسيح شىء. (المصدر نفسه: ١٠٩) هذه هى بعض مظاهر المدينة الحديثة فى شعر اليوت من فساد مخيم على كل أرجاء المجتمع فعمّ القحط وتناثرت أشلاء الموتى وتضاءلت المهمة. وهذا هو يوسف الخال يبحث عن نفسه فيتساءل: «القدر الأعمى أنا، أملح أرض، أم / جبين مسح التراب فى مقابر / الملوك - هذا الأنا؟ أم غيبية / عابرة؟ أم أقحوان فتح الجفون / فى الصباح سردها الخلود فى مسامع الضحايا... /... أم شبح يسير فى / شوارع المدينة الناطحة السحاب، / العالية القباب، المغلقة النوافذ / الزجاج - المدينة المقفرة الموحشة / الخالية الروح، التى يسكنها أناس؟» (الخال، ١٩٧٩م: البئر المهجورة، ١٧٦)

أثرت معاناة حياة الشاعر على إحساسه فعبر عن مشاعر الوحدة والألم والغربة. إذن مشاعر الوحدة والضياع والغربة التى عبر عنها الشاعر إنما هى أثر من معاناته

الحياة فى المدينة؛ وهو يتجول فى مفازة المدن الميتة بحثاً عن حياة الإنسان والنبات مساعداً الإنسان المعاصر فى عريه وضياعه ووحدته وفى عودة الخصب. والأناس فى مدينة الخال يشبه كثيراً بسكان الأرض الخراب «إن سكان الأرض الخراب يتمنون لأنفسهم أيضاً الموت وبخاصة بعد أن ذبل الزرع ولم تعد للحيوانات أية قدرة على الإخصاب، فعمّ القحط واشتدت التحاريق. والأرض الخراب فى نظر إلبوت ماهى إلا أوربا الحديثة وسكانها هم الذين يكونون المجتمع الأوروبى بعد الحرب العالمية الأولى. وقد شهدت تلك السنوات اضمحلالاً فى الأخلاق وبعداً عن مقومات الحياة وإيماناً بقوة المادة وزعزعة فى القيم الروحية. ولهذا كان ومازال لهذه القصيدة صدى قوى فى نفوس المفكرين.» (متى، ١٩٩١م: ٩٧) ... أوه أيتها المدينة، إننى أستمتع أحياناً/ إلى الصوات العذبة المنبعثة من القيثارة/... (المصدر نفسه: ٩٥) ويجمع بين إلبوت والخال الحرمان من المدينة الفاضلة. وإنّ وجه التشابه بين القصيدتين كبير وإن كان عنصر العقم واللاجدوى واللاشيئية هو الغالب فى هذين العمليين.

كما فى قول البوت: «هذه الأرض الميتة/ أرض الصبار/ حيث تنصب الأوثان/ وحيث نتلقى/ الضراعة من أكف الموتى/ تحت لألة نجم خافق.» (متى، ١٩٩١م: ١٥٣) عالمنا الأرضى فيتمثل فى هذه الأبيات، وهذه هى (الأرض الخراب) بعينها، أرض الأموات و الصبار وقد خلت من أى مظهر من مظاهر الحياة، تقام الأصنام فى كل ركن من أركانها، فيضرع لها (الرجال الجوف). (المصدر نفسه: ١٥٣)

وفى هذه الأرض أيضاً: «لا توجد العيون/ العيون لا وجود لها هنا/ فى وادى النجوم الخابية/ فى هذا الوادى الأجوف/ فى هذا الفك المهشم لمالكنا الضالة»؛ فعيون الحقيقة التى تنفذ إليها ببصيرتنا العميقة لا وجود لها بين ضلال هذا العالم. إن الفك المهشم كناية عن الحطام والدمار والخراب الذى أصاب العالم عقب الحروب والمنازعات. (المصدر نفسه: ١٥٥)

كما تحدّثنا مدينة الخال ومدينة إلبوت تشبهان فى الجذب وعدم الخصب والموت واليأس والبأس و«إنّ المدينة الأوروبية الحديثة لم تهج هجاء أعنف ولا أعمق من الهجاء الذى وجهه ت.س. إلبوت إليها فى قصيدته الأرض الخراب.» (الحلاوى،

١٩٩٤م: ٢٧) فمما جاء في تحليل أشعارهما هي صورة للمدينة سواء أكانت شرقية أو غربية، ويستطيع القارئ أن يقارن بين شعر الخال وبين شعر إليوت، فإن المدينة في شعر الخال شرقية خالصة وفي شعر إليوت غربية ولكن ما يتضح للقارئ هو أنّ المدينة موهمة، كدرة، خالية عن الإنسان والحياة في شعر كلا الشاعرين.

النتيجة

يمكن الاستنتاج من دراسة مقارنة لبعض النماذج الشعرية للشاعرين إليوت ويوسف الخال هو أنّ الخال تأثر مباشرة بإليوت، حيث إنّ مفهوم الخال للشعر قريب إلى حدّ كثير من المفهوم الإليوتي، ويظهر ذلك جلياً من خلال حديثه عن الخصائص التي يجب توفرها في القصيدة الحديثة، من هذه الخصائص: استخدام الإيماء التاريخي أو الأسطوري أو الفولكلوري ومنها التعبير بالصورة الحية المجسّدة والتعبير بكلمات وعبارات حية عند الناس لا في بطون الكتب والقواميس، ومنها التعبير عن روح العصر أى معاناة مشاكل الجيل أو الأمة على أنها من مشاكل هذا العصر وذلك برفعها من نطاقها المحلي إلى النطاق العالمي؛ فاطلاع يوسف الخال على الأدب الإليوتي ودراسة أشعاره في مجلة "الشعر" وأخيراً دراسة مقارنة حالية بين نماذج شعرية من الشاعرين يدعونا إلى الاعتقاد بأنّ يوسف الخال كان متأثراً بأشعار إليوت وآرائه مباشرة.

هذا وإنّ إليوت بذل جهوداً كثيرة في الدفاع عن حضارة أوروبية مسيحية تمتد جذورها إلى الحضارتين اليونانية والرومانية وأيضاً المصرية وبعض البلدان الآسيوية، ومثل إليوت أكّد الخال على البعد المسيحي في الحضارة الغربية. وبعد دراسة البعد المسيحي في شعر هذين الشاعرين يمكن الاستنتاج بأنّ طبيعة الرؤيا المسيحية عند الخال تشبه إلى حدّ كثير الرؤيا المسيحية عند إليوت، لأنّهما اشتركا في الموقف النهائي وهو أنّ الخلاص لا يتم إلا من خلال العودة إلى الينابيع الروحية المتجسّدة بالمسيح أى المخلص المأمول عندهما.

وكان مبدأ آخر مشترك بين الخال وإليوت هو أنّ الشعر يجب أن يعكس تجربة إنسانية شخصية وكونية في آن وقراءة متأنية لمقالات الخال في مجال الشعر تظهر

أن جميع مقولاته صدى أفكار إليوت وحضور إليوت وأدبه في مجلة "شعر" بالحركة التي أسسها الخال واضح جداً. ثم فكرة الخلاص على يد المسيح في قصائد الخال كلها تذكرنا بالرؤية المماثلة عند تي. اس. إليوت، أى الدرامية تتولد فى قصائده بنتيجة التناقض بين الواقع المادى والمسيح المنقذ الذى توحى القصيدة بأجوائه ثم إنَّ لجوء الخال إلى توظيف الأساطير وإلى استخدام اللغة الدارجة كان بإيحاء قوى من إليوت أيضاً. والدراسة تدعونا إلى الاعتقاد بأنهما يشتركان فى تجربة المعاناة والإحساس بالضيق، وتصوير معاناة المعذبين فى أرضهما الخراب واليباب.

المصادر والمراجع

- أدونيس. (١٩٨٥م). سياسة الشعر: دراسات فى الشعرية العربية المعاصرة. ط ١. بيروت: دار الآداب.
 إسماعيل، عز الدين. (١٩٩٦م). الشعر العربى المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية. ط ١. القاهرة: دار الفكر العربى.
 راغب، نبيل. (٢٠١١م). أرض الضياع رائحة الشاعرت. س. إليوت. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
 بلحاج، كامل. (٢٠٠٤م). أثر التراث الشعبى فى تشكيل القصيدة العربية المعاصرة. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
 جيدة، عبدالمجيد. (١٩٨٠م). الإتجاهات الجديدة فى الشعر العربى المعاصر. ط ١. بيروت: مؤسسة نوفل.
 حلاوى، يوسف. (١٩٩٧م). المؤثرات الأجنبية فى الشعر العربى المعاصر. ط ١. بيروت: دار العلم للملايين.
 _____ . (١٩٩٤م). الأسطورة فى الشعر العربى المعاصر. ط ١. بيروت: دار الآداب.
 الخال، يوسف. (١٩٧٩م). الأعمال الشعرية الكاملة. بيروت: دار العودة.
 _____ . (١٩٧٨م). الحدائث فى الشعر. ط ١. بيروت: دار الطليعة.
 خيريك، كمال. (١٩٨٦م). حركية الحدائث فى الشعر العربى المعاصر. ط ٢. بيروت: دار الفكر.
 شاهين، محمد. (١٩٩٢م). إليوت وأثره على عبدالصبور والسياب. ط ١. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
 شكرى، عبدالرحمن. (١٩٩٤م). دراسات فى الشعر العربى. ط ١. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.
 عباس، إحسان. (١٩٥٩م). فن الشعر. ط ٢. بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر.
 عباس، إحسان. (١٩٩٩م). اتجاهات الشعر العربى المعاصر. الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب.
 على، عبدالرضا. (١٩٧٨م). الأسطورة فى شعر السياب. الجمهورية العراقية: منشورات وزارة الثقافة والفنون.
 العيسوى، بشير. (١٩٩٨-٥١٤١٨م). دراسات فى الأدب العربى المعاصر. القاهرة: دار الفكر العربى.

- فضول، عاطف. (٢٠٠٠م). النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس دراسة مقارنة. ترجمة: أسامة إسبر. المجلس الأعلى للثقافة.
- لؤلؤة، عبدالواحد. (١٩٩٥م). ت.س. إليوت/ الأرض اليباب الشاعر والقصيد. ط ٢. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- متى، فائق. (١٩٩١م). نوايغ الفكر الغربي إليوت. ط ٢. القاهرة: دار المعارف.
- المعداوي، أحمد. (١٩٩٣م). أزمة الحداثة في الشعر العربي الحديث. ط ١. المغرب: منشورات دار الآفاق الجديدة.
- مورية، س. (٢٠٠٣م). الشعر العربي الحديث ١٨٠٠-١٩٧٠ تطور أشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي. ترجم وعلّق عليه: شفيق السيد وسعد مصلوح. القاهرة: دارغريب.

المقالات والرسالات الجامعية

- حورية، كريدات. (٢٠١٥م). الأسطورة عند أدونيس. الجمهورية الجزائرية: جامعة وهران.
- الضمور، عماد عبدالوهاب. (٢٠١٤م). «أثر إليوت في شعر عزالدين المناصرة». عمان: دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية. المجلد ٤. العدد ٣. صص ٨٧٧-٨٦٦.
- مخلف، فؤاد مطلب ولطيف محمود محمد. (٢٠١٠م). «إليوت عند النقاد العرب». مجلة جامعة الانبار للغات والآداب. العدد ٣. صص ١٠٦-٨٨.

المصادر الأجنبية

- Saddik, M. Gohar. (2017). Appropriating English Literature In Post-WWII Iraqi Poetry. United Arab Emirates, Al Ain, United Arab Emirat.
- Saddik, M. Gohar. (2008). Toward a Hybrid Poetics: The Integration of Western/ Christian Narratives in Modern Arabic Poetry. CROSSROADS.
- Colla, Elliott. (2015). Badr Shakir al-Sayyab, Cold War Poet. Middle Eastern Literature.
- Samarrai, Ghanim. (2014). Rejuvenating T.S.Ellot,s The Waste Land. UAE.
- Adhrraa A. Naser. (2016). Western Modernism Translated And Retranslated In Iraqi Poetry: Al Sayyab Between Eliot And Sitwll. Plymouth, UK. Impact Journals.
- Neimneh, Shadi and Zainab al Qaisi.(2015). The Poetry of B.S.Al-Sayyab:Myth and the Influnse of T.S.Eliot. Hashemite University, Zarqa-Jordan. pp 178-192.